مَركزية الذات وهامشية الآخر في الفكر الاستشراقي

م. م. علي جواد كاظم الجبوري
جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية / قسم اللغة العربية

Self-centeredness and marginality of the other in Orientalist thought

Ali Jawad Kadoom Al-joboory
University of Karbala / College of Islamic Sciences
Department of Arabic Language
Ali777771698@gmail.com
07817696539

Abstract:

The research tries to shed light on the two formats of the center and the margin in Orientalist thought and reveal their implications, as the concept of centralization is based on the perception of differentiation, transcendence and self-reverence as the center of radiation, which applies to Western centralism, which has risen in tone with the increasing dominance of Western civilizational values, and the spread of the Western lifestyle, so the West was considered the center of civilization making, its creator and its path, and the East represented the consumer and subordinate margin, and the greater the dominance of the center in its various manifestations, the shortening of the role of the margin and dwarfing its effectiveness, and dictated to it the conditions and imposed restrictions that agree with it. Western ideology that defined its clear perceptions of the world and man.

Keywords: center, margin, orientalism, self, other

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على نسقي المركز والهامش في الفكر الاستشراقي الجديد وكشف مضمراتهما، إذ يقوم مفهوم التمركز على تصوّر التمايز والتعالي وتقديس الذات باعتبارها مركز الإشعاع، وهو ما ينطبق على المركزية الغربية التي تعالت نبرتها بتزايد هيمنة القيم الحضارية الغربية، وانتشار نمط الحياة الغربية، فاعتبر الغرب مركز صنع الحضارة ومبدعها ومسيرها، ومثّل الشرق الهامش المستهلك والتابع، وكلّما زادت هيمنة المركز بمختلف تجلياتها اختُزِلَ دور الهامش وقزّمت فاعليته، وأمليت عليه الشروط وفرضت عليه القيود التي توافق الإيديولوجية الغربية التي حدّدت تصوراتها الواضحة عن العالم والإنسان.

الكلمات المفتاحية: المركز، الهامش، الاستشراق، الذات، الاخر.

المقدمة

منح الاستبداد الغربي والسيطرة والتحكّم بالسلطة الغرب مكانة محورية ومركزية "وأفضى ذلك إلى نوع من التمركز حول الذات بوصفها المرجعية الأساسية لتحديد أهمية كل شيء وقيمته، وإحالة الآخر على مكوّن هامشي لا ينطوي على قيمة بذاته، إلا إذا اندرج في سياق المنظور الذي يتصل بتصوّرات الذات المتمركزة حول نفسها"[١]. وبالمقابل فإن الهامش أو الأطراف "هي المناطق التي اندمجت في النظام العالمي، دون أن تتبلور إلى مراكز، فهي إذن تلك المناطق التي تتحكم القوى الخارجية في تحديد مدى واتجاه التراكم المحلي فيها"[٢] لقد شكّل البحث في

١. المطابقة والاختلاف: عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية ، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ :٢٢.
٢. النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي: عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي عمان، ط١، ٢٠٠٥، :٤١

الطعن ببعض النصوص القرآنية وقضية النسخ والترتيب وتاريخ جمع وتدوين النصّ القرآني المقدّس نقاط ثقل مركزية واضحة في أبحاث المستشرقين القرآنيّة، وحينما نراجع نظريّات الباحثين الغربيّين (المستشرقين) في هذا المجال نجد العديد من المقولات والآراء، تتفق بعضها (المنصفة) مع ما هو مطروح في الساحة الإسلاميّة من نتائج – وإن اختلفت في بعض التفاصيل– وتختلف الكثير عنها من حيث المقدّمات والنتائج. وعلى الصعيد الاجتماعي فلطالما كانت نظرة الغرب الفوقية للشرق عمومًا، وللعرب خصوصًا ، موضع سخط وجدال وخلاف بين الطرفين، فالمسلمين العرب يحاولون إثبات ذاتهم وتاريخهم وحضارتهم، في قبالة نفوذ الغرب المتحكم والذي ينسب كل شيء له من حضارة وتكنولوجيا حديثة وقوة عسكرية واقتصادية وبالتالي تموضع المركز الغربي مقابل تدني الهامش الشرقي.

إضاءة للمفاهيم

المركز لغةً: مَرْكَزُ الرَجل: موضعهُ، يُقال: أخلَّ فلانٌ بِمَركَزِهِ، ومركز الدائرة: وسَطُها، والمراكز: منابت الأسنان[١]. و ركّز وتركّز أي أصبح أكثر قوة وكثافة، وانصبّ على مسألة أو عمل وانحصر فيهما[٢]،والمركزي هو الذي تتشعّب منه فروع ترتبط به وترجع إليه، والمركزية: جمع السلطة في مركز واحد"[٣]،

المركز اصطلاحًا: يدخل مصطلحا المركز والهامش في مجالات عدّة منها: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية إذ يكثُر تداولهما، فالمركز في الثقافة هو "الثابت في ثقافةٍ ما، بالمعنى النسبي لمفهوم ثابت، وهو ما يتشكل من ترسيخ للعقائد والفلسفات والعادات والتقاليد"[٤]، والمركز: "عند المهندسين نقطة في وسط الدائرة أو الكرة بحيث تتساوى جميع الخطوط الخارجة منها أي من تلك النقطة إلى محيط الدائرة أو الكرة"[٥]، وهو الثابت المستقرّ في الأرض، كما أن له معاني تتصل بالقوة والتحكّم في السلطة والملك.

الهامش لغةً : "الهَمْشُ والهَمَشُ كثرة الكلام والخَطَل في غير صواب، وأنشد: وهَمِشوا بِكَلمٍ غيرِ حَسَنْ"[٦]. ومنه الهامش فهو الكلام غير المجدي والخاطئ، وفي المعجم الوسيط نجد الهامش: "حاشية الكتاب"[٧].

الهامش اصطلاحًا: ويقصد به "كلّ كلامٍ خارج المتن، أو الكلام الذي يوضع على حافّة الكتاب قصد التوسع أو الشرح، والهامش محيط الدائرة والدائرة أساس الأشكال الهندسية، ومحيط كل شكل هندسي قد يكون هامشا[٨].

وتستخدم الكلمة لتدلّ على فرد أو جماعة اجتماعية، معزولة أو لا تتواءم مع المجتمع أو الثقافة المُهيمنة وتوجد على حافّة المجتمع أو الوحدة الاجتماعية، وتنتمي إلى جماعة أقليّة غالبًا ما تنطوي على مضامين الاستغناء وعدم الانتفاع[١].

---

١. لسان العرب : ٣٥٥/٥ مادة (ركز).
٢. المنجد الوسيط في اللغة العربية: انطوان نعمة وآخرون، دار المشرق، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣: ٤٣٧١
٣. المنجد الوسيط في اللغة العربية، دار المشرق بيروت، ط١، ٢٠٠٣: ٤٧٣
٤. جدلية المركز والهامش: د. أبكر آدم اسماعيل، ط٢، منظمة حقوق الإنسان ، الخرطوم، ٢٠١٥: ١١
٥. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي التهانوي، تح: د. علي دحروج ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط١ ، ١٩٩٦م.،: ١٥١٣/٢
٦. لسان العرب: ٣٦٥/٦ باب (همش).
٧. المعجم الوسيط : ٩٩٤.
٨. ينظر: المركز والهامش في روايات عز الدين جلاوجي: جيجخ صورية : ١٧

الاستشراق:

تتعدّد تعاريف الاستشراق لكنّها تتفق على أن لفظة (الاستشراق) مشتقة من مادة (شَرَقَ) يقال: شَرُقَت الشمس شَرقًا إذا طَلعت[٢]، وعند إضافة الألف والسين والتاء أصبحت بمعنى طلب الشيء، و(استشرق) : طلب علوم الشرق ولغاتهم، يقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة"[٣] و"الأصل في كلمة (استشرق) أنه صار شرقيًا، كما يقال (استغرب) إذا صار غربيًا" [٤]. ليس هناك تحديد واضح لمفهوم الاستشراق، حيث يمكن إطلاق هذا المصطلح على ظاهرة بعينها، فهو على قدر من الشمول بحيث يدلّ على كل شيء يتعلق بالشرق، ففيه يحشر علم الآداب والآثار ويقرن علم الاجتماع بالعلوم الإسلامية وتجمع تحت هذا العنوان[٥]. ويمكن أن يكون التعريف الأشمل للاستشراق هو: "الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بشكل عام"[٦]. والمستشرق هو: "الباحث الغربي الذي يحاول دراسة الشرق وتأريخه ولغاته وآدابه وفنونه وعلومه وتقاليده وعاداته"[٧].

إنّ معظم تعريفات مصطلح الاستشراق لا تصل إلى درجة من الدقة في تحديد جوهر المصطلح وعناصره الأساسية لكنها تقدّم عددًا من الشروح التي لا تخلو من الفائدة، فالاستشراق يؤخذ بعدّة مفاهيم متداخلة، فهو: "تيار فكري تمثّل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصوّرات الغربيّة عن العالم الإسلامي، معبّرًا عن الخلفية للصراع الحضاري بينهما، أو هو البحث في علوم الشرق وعقائده وآدابه، وإعداد الدراسات فيها"[٨]، ويقصد به أحيانًا أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز المعرفي والعرقي والإيديولوجي بين الشرق والغرب[٩]، أما بحسب معجم المصطلحات الأدبية فإنه: "مصطلح يخص الشرق كما اكتشفه وسجله ووصفه وتخيله وأنتجه واخترعه الغرب"[١٠]. والاستشراق حسب رؤية إدوارد سعيد "**نمط من الإسقاط الغربي على الشرق و إرادة السيطرة عليه**"[١١]. وفي المفهوم الاجرائي فإنّ الاستشراق هو تصدّي علماء غير مسلمين سواء أكانوا من الشرق أم من الغرب لدراسة علوم المسلمين وحضارتهم ومعتقداتهم وآدابهم وتقاليد شعوبهم وعاداتهم وآثارهم[١٢].

---

١. ينظر : معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع: مجموعة من المؤلفين، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٠: ٦٩٧.
٢. مختار الصحاح: محمد بن ابي بكر الرازي، مكتبة لبنان، ١٩٨٨م: ١٤١، كذلك ينظر: المعجم الوسيط: ج ١٠: ٤٨٢
٣. معجم متن اللغة : الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، ١٩٥٨، ج٣: ٣١١
٤. المفصل في تاريخ الأدب العربي: احمد الاسكندري واخرون، دار احياء العلوم بيروت، ط١، ١٩٩٤: ٤٠٨/٢٠
٥. كنه الاستشراق المفهوم الأهداف الارتباطات: علي ابراهيم النملة، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ٢٠٠١م : ١٨
٦. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: محمود زقزوق: ١٨
٧. ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية: د. محمد حسين الصغير: ١١
٨. فلسفة الاستشراق وأثره في الأدب العربي المعاصر: أحمد سمايلوفيتش ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠: ٢٢. كذلك ينظر: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م: ٥
٩. إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: مالك بن نبي، مجلة الفكر العربي، السنة٥، حزيران ١٩٨٣: ١٣٠
١٠. الاستشراق قراءة في المنهج وقصدية الخطاب: د. فارس عزيز المدرس و د. زاهدة الشيخ، مجلة آداب الرافدين، العدد٦٠، ٢٠١١م : ٩ ، نقلا عن معجم المصطلحات الأدبية ونظرية الأدب : ج. كودين و أي بريستن: ٦١٨-٦٢٢
١١. الاستشراق المعرفة، السلطة، الإنشاء: ادوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١٩٩١،٣ : ١٢٠
١٢. مستشرقون في علم الآثار : محمد الأسعد، الدار العربية للعلوم، بيروت ، ٢٠١٠م: ٢٤٦

أصل الإشكالية

تبدأ الفكرة من التسمية وهي الاستشراق التي تعطي انطباعا عن وجود نوعين من البشر في هذا العالم (الغربي/الشرقي) وأفضلية الغربي على الشرقي، وهو ما يقرّ به كلود كاهين*: "في الحالة التي وصلنا إليها ينبغي علينا أن نحذف كلمة استشراق من قاموسنا، فليس هناك نوعان من البشر، الأول شرقي والثاني غربي، وإنما البشرية هي واحدة في جوهرها، العلم واحد للشرقي كما للغربي"(١). إن ثقافة المجتمع وتاريخه وأيديولوجياته، كما سنحاول التعرض إليها في هذا البحث، تبدو مجالات مُثلى لإظهار الهامشي من الخطاب الاستشراقي وفضح ما استتر منه خلف خطابات السلطة، إذ تمتد عملية الاستقطاب والصراع بين المركز والهامش وتستمر وتعبُر السنوات والأزمنة، في صراع مكتوم أحيانا، ومعلن حينا عبر احتجاجات إجتماعية أو أشكال رفض علنية، وتعبُر لعبة المركز والهامش السنوات والأزمنة، دون أن يتساءل أحدٌ عن شرعية المركز فيها.

يتجلّى مفهوم المركز في المجال الاجتماعي بالتقسيم الطبقي القديم لطبقات المجتمع، إذ تختلف طبقة الأسياد (المركز) عن العبيد (الهامش)، والأغنياء عن الفقراء، وينتج عن هذا الاختلاف عادات تتعلق بالأكل واللبس والجلوس والسكن وغيرها، فلا يمكن للطبقة الدنيا أن تمارس عادات الطبقة العليا لتمايزها الطبقي واختلافاتها الاقتصادية والاجتماعية ممّا يضطر طبقة الهامش إلى تكوين وخلق عادات تلائم طريقة عيشهم وأوضاعهم، والمركزية الإثنية مصطلح يقصد به كل نظرة تجعل من الجماعة مركز الكل، وتقيس كل الجماعات الأخرى أو تزنها وتحكم على قيمتها بالإحالة إلى ذلك المركز، فالنزعة المركزية الإثنية هي نزعة إيديولوجية*، تنفي الاختلاف والتعدّد الثقافي من جهة، وتشدّد على تفوق نسقها الثقافي ومنظومتها المعيارية على سائر الأنساق الثقافية والمعيارية الأخرى، بل إنّها تعمل على إرجاع كل ما لا يطابق قاعدتها المعيارية إلى عالم الطبيعة، وإخراجه من دائرة الثقافة"(٢).

ليس المجال الاجتماعي فحسب هو الذي يضجّ بهوامشه وبها يعيدُ لعبة المركز ويلتذّ بها، فالذاكرة والوعي اليومي هوامشه، أفكارا وآراء والذاكرة الجماعية والفردية قادرة على ابتداع ممارسات للفرز وآليات لشطب وتغييب ما يرادُ له، بسبب (قوانين الذاكرة) وما يراد له أن يُشطب، وفي الحديث عن الثقافة العربية، يتّخذ ما يعرف بعصر التدوين موقعًا رئيسيًا، فالتدوين هو في جانب منه عملية تنظيم وتبويب، للاحتفاظ بما يتوجّبُ تدوينه مقابل ما لا يرادُ له أن يُدوّن، فتدوين العلوم والمعارف، والسير والأفكار، وتدوين الأخبار والحكايات والأسرار وحفظ للمهمّ والضروريّ ، ولكن السؤال من الذي يقرّر رسم حدود المتاح والمرفوض؟

تحفلُ هوامش الثقافة العربية بخطابات وأفكار، يستخدم د. محمد اليوسفي تعبير النصوص الانشقاقية في الدلالة عليها، والتي حَكمت عليها القيم المُهيمنة بالشطب الرمزي أو المادي متوسلة بالنص السلطوي وهي تحاول

---

١. الاستشراق ما له وما عليه (بين دعاته ومعارضيه)، دار الساقي ، بيروت ٢٠٠٠: ٣٣، من رسالة لكلود كاهين يرد على انور عبد الملك رئيس تحرير مجلة ديوجين

*الأيديولوجيا هي: "علم الأفكار وموضوعه دراسة الأفكار والمعاني وخصائصها، وقوانينها، وعلاقتها بالعلامات التي تعبر عنها، والبحث عن أصولها بوجه خاص، كما تُطلق على التحليل والمناقشة لأفكار مجرّدة لا تطابق الواقع، كذلك تعني جُملة الآراء والمعتقدات الشائعة في مجتمعٍ ما دون اعتداد بالواقع الاقتصادي. ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة و كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤: ٧٠

٢. موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الانسانية والفلسفة: محمد سبيلا ، نوح الهرمزي، المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الانسانية، المغرب، ط١، ٢٠١٧ :٤٤٢

رسم الحدود بين أنماط الخطاب المتاح والممنوع[١]، ولاشكَّ في أنّ " فكرة الحوار بين الحضارات والثقافات والأديان المختلفة تشكّل اليوم رهانًا ثقافيًّا كونيًّا حقيقيًّا، وتنبع قيمة هذا الرهان من خطورة الدور الذي تلعبه الفكرة النقيضة، فكرة الصراع والصدام، فمهما كانت رؤيتنا لطبيعة العوامل المولّدة لوقائع الاستعمار والهيمنة والعنف والقتل والدمار في عالمنا اليوم، فلا يمكن أن ننكر قيمة الوظيفة التي تؤديها أيديولوجيا الصدام الحضاري"[٢]. فهي ذات دور رئيسي وفعّال في هذا الجانب. ونستطيع الوصول إلى حقيقة مفادها أن الهامش قادرٌ على الإفلات من سلطة المركز، وكلّما أميط اللثام عن هامش ظهرَ آخر، وكلّما أعمل المركزُ قوانين التغييب والتنميط، كلّما ضجّت الهوامش بذواتها، معاني وسلوكيات وخطابات، أفرادا ومجموعات.

ثنائية المركز والهامش

تعد ثنائيّة المركز والهامش من الثنائيات الجدليّة لدى النقاد، ونجدها في مجالات عديدة كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب، ولطالما كانت العلاقة بينهما علاقة صراع وتنافر، فحتى وقتٍ غير بعيد والعلاقة بين المركز والهامش تحكمها ثنائية التقاطب، في علاقة تتجاذبها موازين القوى الفاعلة في المجتمع المالكة للسلطة، شجعتها على الهيمنة السياسات المنتمية للمركز المستحكمة بالسلطة السائدة، لتفرض نماذجها على الآخر إذ يتعرّض "العديد من الفئات إلى صور المحاصرة والتهميش والاستغلال"[٣]، ورغم تلك الثنائيّة الضدّية لكن "لا يستطيع الهامش الاستقلال عن المركز، ولا في مقدور المركز الاستغناء عن الهامش، فكلاهما مكمّل للآخر، إلّا أنّ تبعية الهامش للمركز هي الواضحة أكثر، والهامش عادةً لا يستفيد من النظُم والقوانين ووسائل الإعلام التي تساهم في الحراك الثقافي؛ لأنها تختص بمراكز المدن والعواصم، فثقافتنا تعاني من غطرسة المركز، وتفضيله لنفسه على حساب الهامش"[٤]

إنّ ثقافة المركز المستندة إلى القوة بأشكالها المختلفة هي الصورة القائمة في الذهن الجمعي، وهي التي توجّه مسار الحياة اليومية وتصنع توجهات الحياة الثقافية، من خلال فرض أنماط معرفية وثقافية على الآخر، الذي يقبع غالبًا في دائرة المهمش، و يُنظر إليه نظرة دونية، هذه النظرة أدّت إلى اهتزازا العلاقات المجتمعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وبروز ثقافة عدائية تمييزية. وإنّ فكرة المركز والمركزية عميقة، وجذورها الوجودية متأصّلة مع رغبة الانسان في الهيمنة والتسيّد مهما كان تأريخه، أو مكانه أو لونه، فقد بدأت الفكرة في المجتمعات البدائيّة القديمة، إذ فرض أسلوب الحياة اتباع القائد، المسيطر، الحاكم أو الحكيم، فالبقاء مرهون بالتزام أوامره وتوجيهاته، فهو المميّز عن غيره والمتميز عمّن سواه، ممّا جعل ذاته مركزًا يدور حوله الآخر التابع، الضعيف، (المهمّش)، غير القادر على فرض إرادته، المؤمن بعجزه نتيجة عوائق نفسية تجعل منه قابلا للاستعمار، وبقيت هذه الفكرة تنتشر وتسود الفكر البشري فانتقلت من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر، ومع قيام الحروب والصراعات

١. فتنة المتخيل، الكتابة ونداء الأقاصي: محمد لطفي اليوسفي، ج١ المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ٢٠٠٢: ١٥
٢. خطاب النقد الثّقافيّ: سهيل الحبيب : ١٩٧.
٣. المهمشون بين الفئات الدنيا في القوى العاملة: عادل عازر وثروت اسحاق، المركز القومي للبحوث، القاهرة، ط١، ١٩٨٩: ١٥٢
٤. المركز والهامش في المجموعة القصصية قصص خارج السياق لسعيد شمشم، غطوط سعاد: ١٧

والاستعمار تجذّرت هذه الفكرة ليصبح الغالب في المعركة هو المركز، والخاسر هو التابع/الهامش، ليتطوّر المفهوم ويصبح تصوّرا قائما على التمايز والتعالي وتقديس الذات[١].

مع تزايد هيمنة القيم الحضارية الغربية كالديمقراطية والليبرالية وغيرها، تعالت نبرة المركزية الغربية، فاعتُبر الغرب (المركز) صانع الحضارة ومسيّرها ومبدعها، فيما مثّل الهامش التبعية والاستهلاك والركود، وكلّما زادت هيمنة المركز اختُزِل دور الهامش، وأُمليت عليه الشروط وفرضت القيود عليه، إذ حيثما يُذكر المركز كقوّة مهيمنة وصانعة للثقافة لابدّ من ذكر الهامش، فكما تقول العرب: تعرف الأشياء بأضدادها.

"إنّ اختلاق الهامش انطلاقًا من مركزيّة النخبويّة أو الصفوة أو الطبقة العليّة، أو المركزية المتسلطة، لا ترتبط بالفكر الكولونيالي فحسب، وإنّما هي ناشئة من تفكير تراتبي يرى في الأعلى تفوقًا وتسلّطًا وهيمنةً بينما يبقي السفلي والدوني طبقات وأفراد في تصوّرات خاضعة مُهيمن عليها، إنّ فكرة التراتبية النخبويّة في المُجتَمع أنّما هي ركام ومخلّفات الثقافة الذكوريّة المُهيمنة"[٢]. وهذا النَسق عبر الممارسة المتكررة يأخذ قراره في اللاوعي المجتمعي ويمكن القول بأنّهُ : " مُرتبِط بلا وعي العقل البشريّ وكونيّته"[٣].

حقائق مركزية

لابدّ من معرفة بعض الحقائق الأساسية للفكر الاستشراقي قبل ولوج البحث في مركزية الذات وهامشية الآخر:

– إنّ المصادر التي استخدمها المستشرقون كانت مادتها الأساسية من نصوص وروايات التراث الإسلامي الرسمية دون الأخذ بنظر الاعتبار التنوع والاختلاف بالمصادر[٤].

– إنّ الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة، وفي الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنبًا الى جنب، يلقى منهما كل تأييد، وإن الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا ماتزال حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليدية، من كونه أداة هدم للإسلام وتشويه سمعة المسلمين[٥].

– إنّ القوة العلمية والمادية التي وصل إليها الغرب أدخلت في نفوسهم قدرًا كبيرا من الغرور فتولّد خطاب الاقصاء وتهميش الآخر، حتى اعتقدوا أنّ الغرب أصل الحضارات وإنّ العقلية الغربية هي العقلية الدقيقة الراجحة التي تفكر تفكيرا منطقيا سليما، أما سواهم من الشعوب والديانات فهي عقليات بسيطة ساذجة[٦]،

– إنّ دراسة المستشرقين للإسلام قامت بوحي الكنيسة الكاثوليكية للانتقاص من الاسلام وإهدار قيمه وتعاليمه، حرصًا على الكنيسة وتعويضا للهزائم الصليبية أمام المسلمين، ولقد كان التبشير والاستشراق طلائع الاستعمار لغزو المسلمين والسيطرة على بلادهم[٧]، وإنّ المؤلفات الاستشراقية الأولى التي وصلت إلينا غلب عليها الطابع العدائي الحاقد على الإسلام، ونبيه الكريم محمد (ص)، وما كانت لتظهر هذه العدائية لو أنّ هذه المؤلفات كتبت في ظل

---

١. ينظر: إسهامات النقد الثقافي في إحلال التقارب بين ثقافة المركز والهامش: د. صالح جديد، مجلة كلية الآداب جامعة خنشلة، العدد١، ٢٠١٥: ٢٤٣

٢. ينظر: جماليات التحليل الثّقافيّ: ٣٠، كذلك ينظر: أَدَب الهامش نسق الهيمنة مركزية الخاصة وهامش العامة : جمال مجناح ، https://www.pdfdrive.com/-e57455559.html : ٢

٣. صراع التأويلات دراسة هيرمنيوطيقية: بول ريكور، تر: منذر عياش، دار الكتاب الجديدة، طرابلس، ط١، ٢٠٠٥م: ٣١٢.

٤. جمع القرآن الكريم عند المستشرقين جون جلكريست أنموذجا : رباح صعصع الشمري :٩٨

٥. ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي، دار الوراق، د.ت: ٣٦

٦. ينظر: المصدر السابق : ٧٨-٧٩

٧. المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الاسلامي: بحوث المؤتمر العلمي الاول لكلية الفقه الجامعة المستنصرية، ١٩٨٦، دار الكفيل: العتبة العباسية المقدسة المركز الاسلامي للدراسات قسم الاستشراق: ٢٠٩

الظروف الطبيعية، فقد كتبت خلال حملات الصليبيين على الشرق الإسلامي وفي ظل احتدام الصراع المسيحي – الإسلامي مرسّخًا النظرة العدائية المسيحية للإسلام[١].

– إنّ المستشرقين في أغلب الأحيان يسيرون على خط المسلمين التقليديين[٢]، أي اعتماد الروايات والنصوص (السلطوية) التي تخدم مصالحهم الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

– يتّخذ المستشرقون قناع المناصب الأكاديمية الأكثر رفعة والمراتب الأكثر علمية والكفاءات الأكثر شهرة، لا لنشر العلم والمعرفة بل لاستخدام هيبتهم العلمية في سبيل أغراض لا علاقة لها بالعلم[٣].

– "لا يهتم المستشرقون إلّا بالنصوص الكبرى للإسلام حيث ينقلونها كما هي إلى اللغات الأوروبية بشكل بارد، رافضين تحليلها من الداخل أو تفكيكها لكي تتجلّى على حقيقتها وبكل معانيها ودلالاتها وكل ذلك بحجة الحيادية[٤]، وبما أن المستشرق هو "شخص يتحدث عن الإسلام من الخارج فإنه يتصرف وكأنه دليل حيادي، بارد، في متحف، إنه يرفض التدخّل فيما لا يعنيه، وهذا الموقف يعتبر بمثابة الاستقالة العلمية أو الفكرية"[٥]، بلحاظ أنّ المستشرقين بقوا خاضعين لمسلّمات الايديولوجيا العرقية المركزية الاوروبية[٦].

– إنّ المستشرقين "يدرسون مجتمعاتنا بهدف تقديم تقارير أو إضاءات إلى البيت الأبيض أو الإدارة السياسية أو المؤسسة العسكرية لكي تعرف كيف تتصرف تجاهنا"[٧]، والموضوع غير مقتصر على الأمريكان منهم بل يشمل معظم الجنسيات الغربية إن لم تكن جميعها.

الأنا والآخر

الأنا مصطلح ذو دلالات مختلفة يتحدد معناه من خلال السياق الذي يرد فيه، فهو "النفس المدركة"[٨]، عند الفلاسفة، وقد يطلق على "موجود تنتسب إليه جميع الأحوال الشعورية"[٩]، وأنا الإنسان "هو الذي يواجه الناس والمجتمع ويتدبر الأمور، وتتحقق به الصور الذهنية والأحلام"[١٠]، فيما يعرّف الآخر بأنه: "الكائن البشري الآخر باختلافاته"[١١]، وقد يأخذ الآخر عددًا من الأشكال والحوارات بالقياس إلى الأنا فهو الآخر في الهوّيّة، والآخر في الأيديولوجيا، والآخر في الدين، والآخر في السياسة، والآخر في الجنس، ويطرح البازعي تقسيمات الآخر إلى "الآخر الفلسفي أو الفكري، الآخر النفساني، الآخر الإبداعي، الآخر الثقافي (الديني، الشعبي، الحضاري)"[١٢]. وقد نجد "أنّ الآخر في كثير من الأحايين كان محل رفض وقمع من أجل المُحافظة على شكل الثقافة و مؤسساتها

١. ينظر: القرآن الكريم في دراسات المستشرقين دراسة في تاريخ القرآن نزوله تدوينه وجمعه، د. مشتاق بشير الغزالي دار النفائس سوريا ، ط١، ٢٠٠٨ : ٢٤
٢. الاسلام ، اوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، محمد اركون: ٩٨
٣. المصدر السابق : ٨٣
٤. في نقد الاستشراق: محمد المزوغي، افريقيا الشرق المغرب، ٢٠١٧ : ١٥
٥. اركون وتشخيص المرض الاسلامي: هاشم صالح، ٣٠
٦. ينظر: في نقد الاستشراق : محمد المزوغي ، ١٧
٧. اركون وتشخيص المرض الاسلامي: هاشم صالح، ٣٤
٨. المعجم الفلسفي: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ج١، ١٣٩
٩. المصدر السابق: ١٤٠
١٠. التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية: فيصل عباس، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦: ٣٣
١١. دليل أكسفورد للفلسفة: تد هوندرتش، ترجمة: نجيب الحصادي، المكتب الوطني للبحث، ليبيا، ٢٠٠٣، ج١: ٣٨
١٢. الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف: سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٨: ٣٧.

وحضورها بقيمها المُختلفة وتراثها الطويل"[١]. "ولم تكنْ الهيمنة وليدة ظرف آني، أو مكان دون آخر، بل هي نزعة تمتدّ عمقًا في التاريخ البشري، وُلِدتْ جرّاءها نزعات استحواذيّة كثيرة، أدّت إلى فكرة إزاحة الآخر المختلف، وتصفيته، فبقي نوعٌ من الأفكار والشخوص، وانقرض نوعٌ آخر مختلف من الأفكار والشخوص"[٢]. وغالبًا ما تكون ثمّة عوائق اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية تمارس قهرًا على الذات، وتمنعها بالتالي من التفاعل مع الآخر، وقد تصوّره مدمرًا لكينونتها، لذا يكون رد فعلها تشويهًا للآخر أو تدميرًا وإقصاءً له.

كثيرًا ما يكون التعبير عن الآخر في الدراسات الاستشراقية التي تتناول صورة الآخر نفيًا له، فهي تبدو للمتلقي جزءًا من سوء التفاهم (العداء) الثقافي القائم بين الطرفين، فهي تدرس الصورة وفقًا لأفكار مسبقة، فهي تنفي الصورة الحقيقية، وتصنع أخرى بديلة خاضعة لأوهام تورث رؤية متعصّبة، ليس لها مصداقية على أرض الواقع.

فإذا أخذنا جانب الترجمة مثالًا على هذا الإقصاء والنفي ، تعدّ ترجمة سيل عند المستشرقين من أهم الترجمات الاستشراقية رغم التحامل المفضوح والعداء الواضح، إذ أعيد طبعها أكثر من ثلاثين مرة، فالمستشرق صمويل زويمر يثني على ترجمة سيل و يقول أنها ستظل ذات قيمة مهمة بالنسبة للمستشرقين[٣]. وفي الإطار ذاته فقد أعلى المستشرق مونتغمري وات من قيمة هذه الترجمة، ووصف مقدمتها بأنها "وصف موضوعي للإسلام"[٤]. ولعلّ هذا الحكم على ترجمة جورج سيل بالموضوعية، رغم بعدها الكبير عن المعايير الأكاديمية المتحررة عبر الانحياز والذاتية و الخلفيات الأيديولوجية، ذلك يفصح عن حقيقة الموضوعية التي ينشدها الاستشراق، أو بالأحرى غالبية المستشرقين ومنهم لويس.

لتحديد الأنا بمختلف أبعاده لابدَّ من وجود الآخر" فوجود هذا الكائن داخل ذلك العالم وجود تصاعدي متفجّر باتجاه غيره، فوجود (الآخر) يسهم في إنماء العالم، كما يدخل ضمن مصاديق الآخر كل ما هو غير الذات المعنيّة، والذات المعنيّة يمكن أن تكون الذات الإلهية أو ذات أي شيء في هذا الوجود، حيًا كان أم جمادًا، وماديًّا كان أم معنويًا، والأمر حين يخص الإنسان سيكون المعني ذلك الإنسان بكل منتجاته سواء الماديّة أو المعنوية بما فيها الثقافة"[٥]. فكانت "(الأنا) مثلًا تعمل على تشويه التعامل الإنساني، وتحيل الآخر إلى تابع، وخاضع، فتحصل عملية الاختزال والقولبة والتسيير للفكر العام، مما أسّس مسارًا ينتهج العنف والمُصادرة والإلغاء"[٦].

من الواضح أنّ الاستشراق الاميركي "روّج لثقافة عالمية قائمة على جدلية صراع الأضداد والأفكار التي قسمت العالم إلى محورين: محور الخير ومحور الشر، وعليه فإن إيديولوجيته المتأسّسة على الثنوية لا تبتعد عن تصويره الإسلام الراديكالي الذي يتهمه بالاستبداد وإلغاء الآخر أو تطويعه"[٧]. إنّ النظرية ما بعد الاستعمارية تعلّمنا أن صراع السلطة مليء بالتناقضات، فمن ناحية نجد هناك الرغبة، يقول إدوارد سعيد: "إنّ الشرق عمومًا يراوح بين

١. النقد الثّقافيّ في الخطاب النقدي العربي العراق أنموذجًا: د. عبد الرحمن عبد الله، مطبوعات بغداد عاصمة الثقافة العربية، ٢٠١٣م: ٢٦٦.
٢. قصيدة النثر العراقية دراسات في الأنساق الثّقافيّة : ٣٩.
٣. ينظر: رؤية إسلامية للاستشراق: أحمد غراب، المنتدى الإسلامي، لندن، ط ٢، ١٤١١هـ: ٣٥
٤. رؤية إسلامية للاستشراق: ٣٥
٥. الآخر الديني في الشعر الاندلسي : حسنين عماد عبد الله ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل،٢٠١٣: ٢.
٦. النظرية والنقد الثّقافيّ: د. محسن جاسم الموسوي :١٧، كذلك ينظر: صورة الآخر في التراث العربي: د. ماجدة حمود، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٠م: ٢٠-٢١، كذلك ينظر: قصيدة النثر العراقية دراسة في الأنساق الثّقافيّة: ٣٧.
٧. صورة الاسلام في أمريكا الجذور والحاضر: علاء بيومي، جريدة الوطن المصرية، ٢٠٠٤/٦/٩م.

ازدراء الغرب والرضا بما هو مألوف، وبين رعشة السعادة بالجديد أو الخوف منه"[١]، فهو متأرجح بينهما رغم أنّ العداء والصراع غالب على الحال.

إنّ فكرة الصراع دائمً ما تأخذ حضورها في واقع الحياة، بل أنّ الصراع هو قانون الحياة الأزلي، الذي يحكم علاقات الأفراد والجماعات ويحدّدها، وقد عُنيت نظرية الصراع بدراسة طبيعة العلاقات بين الأفراد والجماعات التي تتمخّض عن أشكال متفاوتة من التنازع والصدام، فهي تنصّ على أنّ "العالم يشبه بصورة أو بأخرى ساحة معركة مضطربة، فلو نظرنا إلى هذه الساحة من ارتفاع، لرأينا جماعات تصارع بعضها البعض، وهذه تتشكّل ثم تعيد التشكيل، وتقيم التحالفات ثم تنقضها"[٢]، فهي قائمة ومستمرة بحكم تفاعل مؤثرات الحياة ومتطلبات الاستحكام والسيطرة.

لقد كان الآخر المُختلف (الشرقي) محطّ إلغاء وتهميش وإقصاء لعقود طويلة من الزمن، قبال تمرّكز (الأنا/ الغربي) في محور الثقافة، على حين هُمّش الآخر واستُبعِد، بلحاظ عدم قدرته على إسماع صوته وإيصال خطابه، ووقوعه تحت تأثير سطوة المركز، فالآخر له ارتباط مع الواقع الذي يعيش فيه والمُتخيّل الجمعي الذي يؤطّره، ولعلّ سلبية الثقافة العربية تجاهه، ولا نبالغ إذا قلنا أنّ بعض الأفكار والتوجّهات الإسلاميّة قد أوصلت العلاقة مع الآخر حد الحروب وإراقة الدماء، نتيجة التشدّد وأفكار التطرّف، التي تُبيح دم وعرض ومال الآخر، فهو يمثّل إشكاليّة ثقافيّة مترسّخة في وعي ولاوعي المُجتَمع، وهذه الإشكاليّة متداخلة مع الكثير من الخطابات، إذْ ينشأ الفرد ويتطوّر وعيه من خلال مقاربات يكوّنها وعيه الخاص مقارنةً بـ "نسق مترابط من الصور والدلالات والأفكار والأحكام السابقة التي تشكّلها كل فئة أو جماعة أو ثقافة عن نفسها وعن الآخرين، فكل جماعة تشكّل صورًا وأحكامًا عن الجماعات الأخرى ويتم ترسيخ هذه الصور في الوعي واللاوعي الجماعي بمرور الزمن وبالقوة الماديّة أو الثّقافيّة التي يتمتّع بها المثيل"[٣]. فهي تشكيل لمخيال ووعي مقصود ومتعمد عن الآخر.

نظرة الاستعلاء الغربية

قد تذهب الأنا أحيانًا إلى طرح صادم ومستفز ومتمادٍ في تعظيم قدرها، مقابل تهوين مبالغ به في شأن الآخر، "فالذات المتعاظمة من داخلها لا يمكن أن يبقى فيها مكانٌ للآخر"[٤]، وهو ما عليه الفكر الغربي المتعالي حيث الأنا هي المركز الذي لا يعدو الآخر أن يكون هامشًا قليل الشأن والقيمة أمامه. يقول برنارد لويس: "يتّسم المسلمون، مثل معظم غيرهم من الشعوب التي كانت مُستعمرة، بعجزهم عن قول الحق أو حتى إدراك الحقيقة، إذ أنّهم يدمنون الأساطير، شأنهم في هذا شأن المدرسة التنقيحية المزعومة في الولايات المتحدة، وهي التي تتطلّع إلى عصر ذهبي قديم تزينه الفضيلة الأمريكية، وتنسب كل الخطايا والجرائم تقريبًا إلى المؤسسة الاجتماعية الحالية في بلادهم"[٥]، ووفقًا لقول لويس، فهو يضع نفسه كـ(غربي) في مرتبة أعلى من مرتبة من يتحدّث عنهم (المسلمين)،

---

١. الاستشراق: إدوارد سعيد : ٥٩
٢. النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس: إيان كريب، ترجمة محمد حسين غلوم ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع ٢٤٤، ١٩٩٩: ٩٥
٣. تمثيلات الآخر : ٢٠
٤. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية: عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥: ١٢٧
٥. الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦ :٤٨٠ نقلًا عن Bernard Lewis:42 History remembered, Recovered, Invented (Princeton, N.J: Princeton University : Press, 1975) p.68

فهم مجرّد مسلمين يؤمنون بالأساطير، وهؤلاء المسلمين يعيشون الوهم والخيال بنسب كل أخطاء زمنهم إلى غيرهم تنصّلًا من المسؤولية، وتهربًا من واجبهم كأعضاء في المجتمع، وبدلًا من ذلك فإنّهم يعيشون حلم الماضي الذهبي المختلق أو المُبالغ فيه.

يحاول المستعمر الغربي –عبر المستشرقين– إظهار اندماجه في المجتمع وسياقه الثقافي لتحصيل القبول لدى المتلقي، لتحقيق مقولة : "إن الاستشراق الأوروبي هو الذي أخذ المبادرة في العصور الحديثة لدراسة تاريخهم الخاص، وإنه لولاه لكانوا عاجزين عن أن يقولوا عن ماضيهم نصف ما يستطيعون قوله اليوم، بطريقتهم الخاصة، فنحن لا نزال نمتلك حتى الان الميزة المتفوّقة التالية : إننا قادرون على الاهتمام بتاريخ كل شعوب العالم وليس فقط بتاريخنا الخاص"[١]، فرغم إن "كراهية اليهود للإسلام واضحة طوال حقب التاريخ, فقد وجدوا في مجال الاستشراق فرصة سانحة لتسريب سمومهم ضد الإسلام والمسلمين, فدخلوا هذا المجال تحت شعار العلم[٢], واستطاعوا أن يكيّفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً في إطار الحركة الاستشراقية الأدبية النصرانية إذ دخلوا ذلك الميدان بوصفهم الأوروبي لا بوضعهم اليهودي[٣].

إنّ اختلاق الهامش انطلاقًا من "مركزيّة النخبويّة أو الصفوة أو الطبقة العليّة، أو المركزية المتسلطة، لا ترتبط بالفكر الكولونيالي فحسب، وإنّما هي ناشئة من تفكير تراتبي يرى في الأعلى تفوقًا وتسلّطًا وهيمنةً بينما يبقي السفلي والدوني طبقات وأفراد في تصوّرات خاضعة مُهيمن عليها، أنّ فكرة التراتبية النخبويّة في المُجتَمع أنّما هي ركام ومخلّفات الثقافة المُهيمنة"[٤]. وهي تراكم لثقافة قديمة تمتد مئات السنين ، يقول الدكتور جواد علي: "إنّ يوحنا الدمشقي يعدّ ممّهداً للمستشرقين المعروفين بتحاملهم على الإسلام ؛ فأكثر ما يزعمونه ويذكرونه عنه, هو ممّا كان قد قاله ودونه قبلهم بما يزيد على ألف عام"[٥].

ولا تقف الأنا الغربية عند هذا الحد في مواجهة الآخر الشرقي لكنها تمعن في إظهار قواها وقدراتها الكامنة، فتستثمر منجزاتها التقنية والعلمية الحديثة وتطور ماكينتها الصناعية وتكاملها الاقتصادي لإظهار الفوارق الشاسعة بين الخصمين، فهي حريصة على إبراز مكامن القوة لديها وكشف مواضع الضعف لدى الآخر، كما تذهب الأنا الغربية إلى استحضار قوة فاعلة في صراعها مع الآخر هي قوة الفعل/السيطرة التي وجدت فيها الأنا أداةً نافعةً ومؤثرة في عالم قائم على منطق الغلبة والقوة والصراع، فالحياة تتطلّب القوّة سبيلًا في الصمود والمواجهة، إذ يُنظر إلى الإسلام في الغرب بوصفه "خطرًا حقيقيًا متناميًا، فيقول صامويل هنتنغتون: بصورة صريحة إنّ "الحدود الإسلامية دامية"، وقد نتجت تصوّرات عن الإسلام من حيث إنّه خصم، أو عدو، وهذه التصوّرات جاهزة للاستخدام من قبل الإيديولوجيين الذين يحتاجون من أجل سياستهم الإمبريالية وطموحاتهم القائمة على السيطرة، بالضرورة إلى عدو"[٦]. فالمقابل هو بمثابة خطر محدق ومستمر على سلطة الأنا، ومواجهته حتمية. يتعكّز برنارد لويس على فكرة

---

١. الاستشراق ما له وماعليه:٣٦
٢. أثر الفكر اليهودي في كتابة التاريخ الاسلامي: محمد زغروت، دار النشر الاسلامية ١٤٠٨هـ : ١١٨
٣. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري : سلسلة كتاب الامة، قطر، ١٤٠٤هـ : ٤٩
٤. ينظر: أدب الهامش نسق الهيمنة مركزية الخاصة وهامش العامة : جمال مجناح ، https://www.pdfdrive.com/-e57455559.html : ٢
٥. تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي: نقلاً عن: هموم المثقفين في العالم الإسلامي. د . محمد كمال إمام دار الهداية مصر: ٥٦ , ٥٧ .
٦. دور الأديان في السلام العالمي: هانز كينغ، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠: ٧٦

خلق العدو لتوحيد الصف، ويتعم العمل على ذلك بصور شتّى، معتمدًا على نظرية "صورة العدو ترسّخ فكرة إنّ عدوًا مشتركًا يجب أن يقوّي التماسك، إذا كنا (نحن في الغرب) غير موحدين في المواقف، فالعدو يتيح لنا أن نقف معًا موحدين، نقصي من يمارس النقد علينا ونستبعد الخارجين عن طوعنا"[١]. وهو بهذا يدعو علنًا للتوحد للوقوف بوجه الآخر عسكريا وثقافية واقتصاديا، بعيدا عن لغة الحوار التي يتمشدق بها الغرب.

تقدّم الأنا الغربية أحيانا صور مركزية واضحة، مقابل دور هامشي غائم للآخر، إذ تبدو هذه الأنا واثقة مطمئنة بما لديها من إمكانيات وقدرات، تتمثّل على نحو واضح بالتأكيد على التميّز والتفرّد بالسلطة، وهي القيمة الأهم التي حرصت الأنا الغربية على إبرازها للعالم وفي وجه خصومها، كلّما اشتد أوار المواجهة.

يُرجِع برنارد لويس فكرة كره المسلمين للغربيين بصفة عامّة إلى بداية الدعوة وبدء تشكّل الإسلام، واستراتيجيته في غرس الكره تجاه الغرب وحضارته، فلم يكن المسلمون يشعرون بخطر تجاه الوثنيين والمشركين في الشرق والجنوب، "أمّا في الشمال والغرب فقد أدرك المسلمون منذ البدايات الأولى أنّ هناك خصمًا حقيقيًا، دينًا عالميًا منافسًا، وحضارة متميزة بنيت بإلهام من ذلك الدين وإمبراطورية رغم أنّها أصغر من امبراطوريتهم فإنّ طموحاتها لا تقل مطلقًا عن امبراطوريتهم في تطلعاتها"[٢]، إنّ رسم لويس لصورة الصراع بين الإسلام والغرب على أساس كره المسلمين لتميّز الحضارة الغربية وعالمية الدين المسيحي، وإنّ الصراع هذا أزلي لن ينتهي إلّا بانتصار أحدهما على الآخر، ربّما يعطي الذريعة ويقدّم المبرّر للغرب في مواجهة هذا الكره والعداء.

تمعن الأنا أحيانًا في "صراعها مع الآخر في وصمه بمزيد من الصور المشوّهة والمنقوصة، من أجل الانتقاص منه والإمعان في تسقيطه، فالآخر يتّسم بالضعف والقصور والجهل، وهي صفات سلبية من شأنها أن تزيد من وضاعة الآخر ودونيته، وإذا كانت هذه الصفات السلبية للآخر تأتي على مستوى الحاضر، فإنها في المقابل يمكن أن تستحضر على مستوى الغياب صفات إيجابية مضادة تتمثل في القوة والطول والعلم، وهي الصفات التي تتحلى بها الأنا وتتميز"[٣]، وكثيرا ما تكون هناك مواجهة حادة بين الأنا التي تستحوذ على صفة الكمال لنفسها، والآخر الذي ينطوي على النقص والدونية، وتتشكّل هذه العلاقة الضديّة بين الأنا والآخر، لتتخذ لغة مستهجِنة ورافضة تُبقي الأنا على مسافة بعيدة من الآخر الذي ترفض التصالح معه.

تكشف العلاقة الضدّية بين الأنا والآخر في خطاب المستشرقين الغربيين عن وجود نسقين فكريين ثقافيين متباينين، نسق التمركز الذات ونسق تهميش الآخر، وهما على ما بينهما من تباعد ونفور لا يفضي إلى أي وئام أو لقاء، وتتجلّى صورة الأنا لتعبّر من خلال كتابات المستشرقين عن ذات متعالية تبحث عن السمو والمجد الأسطوري الذي يحقق لها قيمة وجودها، ويرضي غرورها، وإزاء هذه الصورة الفضفاضة للأنا، تظهر في المقابل صورة موازية لها، صورة الآخر الضعيف المهزوز الخائف، تتعالى صورة الأنا لتتصاغر صورة الآخر. وعلى ما سبق يمكن وصف الأنا الغربية وفق تمظهرها في كتابات المستشرقين بأنها "الوحدة الدائمة التي تكمن وراء كل تغيّر، والمركز الذي يتجاوز الزمن، وانها الشيء الذي لا يمكن تعريفه إلا بحدود نفسه الخاصة"[٤].

---

١. دور الأديان في السلام العالمي: ٧٨
٢. الإسلام الأصولي، برنارد لويس : ١٤
٣. الأنا والآخر في شعر المتنبي دراسة في اشكالية الظاهرة: مفلح الحويطات، المجلة العربية للعلوم الانسانية، مج٣٣، ع١٣١، ٢٠١٥: ١٥٥-
٤. العزلة والمجتمع: نيقولاي برديايتيف، ترجمة فؤاد كامل عبد العزيز، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠: ١١٢

إن القوة العلمية والمادية التي وصل إليها الغرب أدخلت في نفوسهم قدرًا كبيرا من الغرور فتولّد خطاب الاقصاء وتهميش الآخر، حتى اعتقدوا أن الغرب أصل الحضارات وإن العقلية الغربية هي العقلية الدقيقة الراجحة التي تفكر تفكيرا منطقيا سليما، أما سواهم من الشعوب والديانات فهي عقليات بسيطة ساذجة[١].

الخاتمة:

خرج البحث بنتائج نوجزها بما يلي:

- إنّ الفكر الاستشراقي يستهدف إضعاف الأمة الإسلامية وضربها بكل الوسائل والانتقاص من شأنها وخاصة فيما يتعلق بعقائدها ومقدساتها وضرب مكامن قوتها للنيل.
- إنّ الاستشراق لا يهتم إلّا بالخطابات (المركزية) الرسمية السائدة متجاهلًا بذلك المكبوت والمسكوت عنه (الهامشي) في العالم العربي والإسلامي بسبب الرقابة الرسمية القمعية ماضيًا وحاضرًا.
- تتباعد الذات المتمركزة عن الآخر بانتهاج خطاب يتميز بتقديم ذات تسلك طريق السمو والمجد الذي تجد فيه ما يحقق طموحها ومجدها وغايتها، مؤمنة وعاملة بمبدأ القوة الفاعلة وثقافة الاستحواذ والهيمنة.
- يتصّف خطاب الآخر المهمّش بالضعف والركّة والخضوع وعدم القدرة على التأثير، وفقدان الشجاعة والحكمة وعلوّ الهمّة، وهي القيم التي بفقدها يفقد الإنسان كل قيمة إيجابية.
- غالبًا ما تكون ثمّة عوائق اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية تمارس قهرًا على الذات، وتمنعها بالتالي من التفاعل مع الآخر، وقد تصوّره مدمرًا لكينونتها، لذا يكون رد فعلها تشويهًا للآخر أو تدميرًا وإقصاءً له.
- ينبعث الاستشراق بصورة عامة من الكنيسة، وفي الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنبًا الى جنب، يلقى منهما كل تأييد، وماتزال الدول الاستعمارية حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليدية، من كونه أداة هدم للإسلام وتشويه سمعة المسلمين.
- إن القوة العلمية والمادية التي وصل إليها الغرب أدخلت في نفوسهم قدرًا كبيرا من الغرور، فتولّد خطاب الاقصاء وتهميش الآخر، حتى اعتقدوا أن الغرب أصل الحضارات وإن العقلية الغربية هي العقلية الدقيقة الراجحة.

المصادر

١. الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف: سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٨.
٢. الآخر الديني في الشعر الاندلسي : حسنين عماد عبد الله ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل،٢٠١٣.
٣. أَدَب الهامش نسق الهيمنة مركزية الخاصة وهامش العامة: جمال مجناح، : https://www.pdfdrive.com/-e57455559.html
٤. الاستشراق ما له وما عليه (بين دعاته ومعارضيه) من رسالة لكلود كاهين يرد على انور عبد الملك رئيس تحرير مجلة ديوجين، دار الساقي ، بيروت ٢٠٠٠م.

١. ينظر: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي: ٧٨.

٥. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري : سلسلة كتاب الامة، قطر، ١٤٠٤هـ .
٦. الاستشراق ومملكة التطرف: محمد سعدون المطوري، مجلة دراسات استشراقية، ع٦، ٢٠١٦م.
٧. الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر : مونتغمري وات، تر: عبدالرحمن عبد الله الشيخ، ١٩٦٨م.
٨. الاسلام، اوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، محمد اركون، دار الساقي، بيروت ١٩٩٨م.
٩. تاريخية الفكر العربي الاسلامي: محمد اركون ، دار الشروق ، ٢٠٠٧م.
١٠. تمثيلات الآخر – صورة السود في المتخيّل العربي الوسيط, نادر كاظم, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت لبنان, ط١/٢٠٠٤ م.
١١. جدلية المركز والهامش قراءة جديدة في دفاتر الصراع في السودان: د. أبكر آدم اسماعيل، ط٢، منظمة حقوق الإنسان والتنميَّة، الخرطوم، ٢٠١٥م.
١٢. جمع القرآن الكريم عند المستشرقين جون جلكريست أنموذجا : رباح صعصع الشمري ، دار الكفيل للطباعة والنشر: ط١، ٢٠١٤.
١٣. خطاب النقد الثقافي في الفكر العربي المعاصر: سهيل الحبيب، دار الطليعة، ٢٠٠٨م.
١٤. صورة الآخر في التراث العربي: د. ماجدة حمود، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٠م.
١٥. الغرب والإسلام (حوار أم صراع): د. زيد عدنان محسن، المجلة السياسية والدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين، بغداد، ٢٠٠٩م.
١٦. الفهرست: محمد بن إسحاق النديم، تح: أيمن فؤاد، دار المعرفة بيروت، ٢٠٠٩م.
١٧. في نقد الاستشراق: محمد المزوغي، افريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٧ م.
١٨. القرآن الكريم في دراسات المستشرقين دراسة في تاريخ القرآن نزوله تدوينه وجمعه، د. مشتاق بشير الغزالي، دار النفائس سوريا ، ط١، ٢٠٠٨م.
١٩. قصيدة النثر العراقية دراسة في الأنساق الثقافية : هيثم كاظم صالح، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة البصرة ، ٢٠١٥م.
٢٠. لسان العرب: جمال الدين ابي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، ت٧١١هـ، تح: عامر احمد حيدر، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية للطباعة والنشر بيروت، ٢٠٠٣م.
٢١. المركز والهامش في روايات عز الدين جلاوجي: جيجخ صورية، اطروحة دكتوراه جامعة محمد خيضر الجزائر ٢٠١٦م.
٢٢. المطابقة والاختلاف بحث في نقد المركزيات الثقافية: عبد الله إبراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١، ٢٠٠٤م.
٢٣. المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م.
٢٤. معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع: مجموعة من المؤلفين، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
٢٥. مقدمتان في علوم القرآن: مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية: آرثر جيفري، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٥٤م.
٢٦. المنجد الوسيط في اللغة العربية: انطوان نعمة، دار المشرق، بيروت ، ط١، ٢٠٠٣م.
٢٧. النظرية والنقد الثَّقافيّ: محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥م.

٢٨. النقد الثقافي المقارن، منظور جدلي تفكيكي: عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان ، ط١، ٢٠٠٥م.
٢٩. النقد الثَّقافيّ في الخطاب النقدي العربي العراق أنموذجًا: د. عبد الرحمن عبد الله، مطبوعات بغداد عاصمة الثقافة العربية ، ٢٠١٣م.

Sources

1. Cultural Difference and the Culture of Difference: Saad Al-Bazai, Arab Cultural Center, Beirut, Casablanca, 1st Edition, 2008.
2. The Religious Other in Andalusian Poetry: Hassanein Imad Abdullah, Master Thesis, Faculty of Education for Human Sciences, University of Babylon, 2013.
3. Marginal literature The pattern of domination Central private and marginal public: Jamal Mujnah, https://www.pdfdrive.com/-e57455559.html :
4. Orientalism is what it has and what it has (between its advocates and opponents) from a letter by Claude Cahen responding to Anwar Abdel Malik, editor-in-chief of Diogenes magazine, Dar Al-Saqi, Beirut 2000.
5. Orientalism and the Intellectual Background of the Civilizational Conflict: The Book of the Nation Series, Qatar, 1404 AH.
6. Orientalism and the Kingdom of Extremism: Muhammad Saadoun Al-Mutawari, Journal of Oriental Studies, Volume 6, 2016.
7. Islam and Christianity in the Contemporary World: Montgomery Watt, tr: Abdul Rahman Abdullah Al-Sheikh, 1968.
8. Islam, Europe, the West, the stakes of meaning and the wills of domination, Muhammad Arkoun, Dar Al-Saqi, Beirut 1998
9. The History of Arab-Islamic Thought: Muhammad Arkoun, Dar Al-Shorouk, 2007.
10. Representations of the Other – The Image of Blacks in the Medieval Arab Imagination, Nader Kazem, Arab Institute for Studies and Publishing, Beirut, Lebanon, 1st Edition/2004.
11. The dialectic of the center and the margin, a new reading in the notebooks of the conflict in Sudan: Dr. Abkar Adam Ismail, 2nd Edition, Human Rights and Development Organization, Khartoum, 2015.
12. Collecting the Noble Qur'an among orientalists John Gilchrist as a model: Rabah Sa'sa Al-Shammari, Dar Al-Kafeel for Printing and Publishing: 1st Edition, 2014.
13. The discourse of cultural criticism in contemporary Arab thought: Suhail Al-Habib, Dar Al-Tali'a Printing, 2008.
14. The Image of the Other in the Arab Heritage: Dr. Magda Hammoud, Difference Publications, Algeria, 2010.
15. The West and Islam (Dialogue or Conflict): Dr. Zaid Adnan Mohsen, Political and International Journal, College of Political Science, Al-Nahrain University, Baghdad, 2009.
16. Index: Muhammad bin Ishaq Al-Nadim, Tah: Ayman Fouad, Dar Al-Marefa Beirut, 2009.
17. In the Critique of Orientalism: Mohamed Mezoughi, East Africa, Morocco, 2017.
18. The Noble Qur'an in Orientalist Studies: A Study in the History of the Qur'an, its Revelation, Codification and Collection, Dr. Mushtaq Bashir Al-Ghazali, Dar Al-Nafais Syria, 1st Edition, 2008.
19. The Iraqi prose poem: a study in cultural patterns: Haitham Kazem Saleh, PhD thesis, College of Education for Human Sciences, University of Basra, 2015.

20. Lisan al-Arab: Jamal al-Din Abi al-Fadl Muhammad ibn Makram ibn Manzur al-Afriqi al-Masri, d. 711 AH, ed: Amer Ahmed Haidar, Muhammad Ali Beydoun Publications, Dar al-Kutub al-Ilmiyya for Printing and Publishing, Beirut, 2003.
21. Lisan al-Arab: Jamal al-Din Abi al-Fadl Muhammad ibn Makram ibn Manzur al-Afriqi al-Masri, d. 711 AH, ed: Amer Ahmed Haidar, Muhammad Ali Beydoun Publications, Dar al-Kutub al-Ilmiyya for Printing and Publishing, Beirut, 2003.
22. The Center and the Margin in the Novels of Ezzedine Jalawji: Jijkh Souria, PhD thesis, University of Mohamed Khider, Algeria, 2016.
23. Conformity and Difference: A Research in the Criticism of Cultural Centralities: Abdullah Ibrahim, The Arab Institute for Studies and Publishing, Beirut, 1st Edition, 2004.
24. Intermediate Dictionary: Arabic Language Academy, Al-Shorouk International Library, 4th Edition, 2004.
25. Dictionary of Culture and Society Terms: A Group of Authors, tr: Saeed Al-Ghanmi, The Arab Organization for Translation, Beirut, 1st Edition, 2010.
26. Two Introductions to the Sciences of the Qur'an: Introduction to the Book of Buildings and Introduction to Ibn Attia: Arthur Jeffrey, Al-Khanji Library, Egypt 1954.
27. Two Introductions to the Sciences of the Qur'an: Introduction to the Book of Buildings and Introduction to Ibn Attia: Arthur Jeffrey, Al-Khanji Library, Egypt 1954.
28. Al-Munajjid Al-Waseet in the Arabic Language: Antoine Nehme and others, Dar Al-Mashreq, Beirut, 1st Edition, 2003.
29. Theory and Cultural Criticism: Mohsen Jassim Al-Musawi, Arab Institute for Studies and Publishing, 2005.
30. Comparative Cultural Criticism, A Deconstructive Dialectical Perspective: Izz al-Din al-Manasra, Majdalawi Publishing and Distribution House, Amman, 1st Edition, 2005.
31. Cultural Criticism in the Arab Critical Discourse, Iraq as a Model: Dr. Abdul Rahman Abdullah, Baghdad Publications, Capital of Arab Culture, 2013.